تحرير المرأة لقاسم أمين

بقلم
الدكتور ماهر حسن فهمى
الأستاذ المساعد بجامعة عين شمس

لا شك أن قاسم أمين يعتبر من أبرز المصلحين الذين ظهروا على مسرح الحياة فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، فقد استطاع أن يحول التيار الاجتماعى الذى كان يسير فى مصر ، وأن يحمل الشعلة التى أضاءت حياة ما عرفت النور منذ قرون ، وفتحت قلب كل فتاة للنهضة الحقة التى يتطلبها الوطن من رجاله ونسائه على السواء . وحياة هذا المصلح الكبير تعتبر صورة رائعة من صور الكفاح المستمر لتحقيق المبدأ والإخلاص للعقيدة .

ولد قاسم بالإسكندرية فى أول ديسمبر عام ١٨٦٣ من أب تركى وأم مصرية ، وكان أبوه محمد أمين حاكماً لكردستان من قبل تركيا ، ثم منحته بلدته بعض الإقطاعيات فى مصر — وكانت فى نواحى دمنهور حسب العقود التى تذكرها الأسرة ، فرحل إلى مصر ليقيم بها نهائياً . وهكذا قدر لقاسم أمين أن ينشأ فى التربة المهيأة لمبدئه الذى احتضنه بعد حين .

وعندما أتم قاسم دراسة الابتدائية بمدرسة رأس التين ، انتقل به أبوه إلى القاهرة ، واختار سكناً بالحلمية — وهى إذ ذاك حى أرستقراطى — ثم ألحقه بالمدرسة التجهيزية ، وهى الخديوية الآن . كان الفتى يعود إلى بيته ، فيوزع جهوده بين دروسه وبين قراءة كتب الأدب الفرنسى والاجتماع والتاريخ ، فيحصل أضعاف ما يحصله زملاؤه فى المعرفة العامة . لم يتلق المعرفة المدرسية كأنها أول العلم ومنتهاه ، بل كان واسع الاطلاع ، جذبه الأدب لأن فى أعماقه نفساً شاعرة ، وجذبه التاريخ ليعرف ماضى بلده وحاضره وجذبته كتب الدين لأنه عاش فى عصر الجامعة الإسلامية ، وجذبته كتب القانون التى وجدها فى مكتبة أبيه ، ولكن العجيب أن تجذبه كتب الاجتماع فى ذلك الوقت المبكر .

كان قاسم مفرط الذكاء ، ولكنه لم يكن من المتفوقين فى حياته الدراسية هذه ، لأنه لم يكن يستطيع أن يقاوم رغبة ملحة فى توسيع دائرة اطلاعه ، ووقف بجانبه والده يشجعه على هذا الاتجاه ، وكأنما كان يلمح فى ولده دلائل نبوغ ، ففهمه أكثر مما فهمه أساتذته . حتى إذا اتجه اتجاه والده القانونى ، وأوفت سنوات دراسته على الانتهاء بمدرسة الحقوق ، ظهرت مقدرته على التركيز ، فكان أول الناجحين فى إجازة الحقوق عام ١٨٨١ ، وتلك سن مبكرة فى ذلك الوقت .

لم يتحير الفتى بعد ذلك وهو يبحث عن طريقه فى الحياة ، فقد بعث إليه مصطفى فهمى المحامى وعرض عليه أن يعمل بمكتبه ، وقبل قاسم تحت إلحاح والده ، برغم علمه بقسوة مصطفى فهمى المتناهية على كل المحيطين به ، واختلافه معه فى كثير من الأمور التى تتعلق بتدخل الأجانب فى شئون مصر . وأحب مصطفى فهمى الفتى الذكى قاسما ، ولكن فتانا لم يكن يبادله نفس الحب ، كان يحترمه لصلته بوالده ولعلمه ، ولكنه كان يبغض فيه قسوته ووطنيته الزائفة . وقاسم وطنى متحمس شأن الشباب المثقف فى ذلك الوقت ، وقد كان واحداً من تلك الحلقة الذهبية التى أحاطت بجمال الدين الأفغانى . واستمع الطالب الفتى لأستاذه الشيخ يتحدث عن الوطنية وعن الجامعة الإسلامية ، وعن تنقية الدين من البدع ، وتحمس لكل ذلك شأن تلاميذ جمال الدين ، بالرغم من صغر سنه ، ولكنه أشرب تعاليمه ، واستقى من نفس الكأس التى شرب منها كل أعلام عصره .

ولم تطل إقامة قاسم بمصر ، فقد آن له أن يرحل إلى فرنسا ليتم تثقيفه فى بعثة من تلك البعثات التى أثرت حياتنا وأخصبتها . ويتطلع قاسم إلى الحياة من حوله فيجد تقدماً فى العلوم الرياضية والطبيعية ، والحركة الصناعية فى تطور هائل . وفكرة الحرية السياسية التى أتت بها الثورة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر قد تطورت إلى أيديولوجية جديدة يعتنقها المجتمع ، فأصبحت حرية اجتماعية ، وحقوقاً للعامل ، وإلغاء للرق ، وانطلاقاً للمرأة . وكانت محاولة الاشتراكيين منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر تهدف إلى إدراك المساواة الاجتماعية والاقتصادية إلى جانب المساواة السياسية التى اعترف بها القانون . فى سنة ١٨٢١ دافع « سان سيمون » عن حقوق العمال ، وفى سنة ١٨٤٠ كتب « برودن » كتابه (ما هى الملكية ؟ هى السرقة) وفى سنة ١٨٦٧ كتب « كارل ماركس » كتابه (رأس المال) . وهذه السلسلة من رجال الثورة الاشتراكية هى التى أظهرت الطبقة العاملة ، وحاولت أن تخلص أفرادها من براثن الرأسمالية ، وانتهت أيضاً بأن ألغى الرق ، وأصبح العبيد ينعمون بما ينعم به الأحرار . كشفت الطبقة العاملة كما كشفت حقوق العبيد ، وحقوق المرأة أيضاً . فقد كانت هناك حركة نسائية فى فرنسا ، وكانت هناك حركة نسائية أخرى فى انجلترا وأمريكا ، وكانت بعض ولايات أمريكا تقوم بتجربة جديدة فى ذلك الوقت ، هى منح الحرية السياسية للنساء .

أفكار العدالة والحرية والمساواة والتقدم تعيش داخل أوربا ، فهى بضاعة محلية لا تصدر إلى الخارج أبداً . ففى الخارج التكالب على منابع الثروة وإرسال الجيوش للإبادة . استولت فرنسا على تونس عام ١٨٨١ وها هى ذى انجلترا تقاتل لتنشب أنيابها المسعورة فى جسم مصر . ويتتبع قاسم أنباء القتال الدائر فى بلده ، فيقرأ فى الصحف الفرنسية عن مقاومة جيش عرابى وهزيمة الإنجليز فى كفر الدوار وانضمام المصريين جميعاً لجيش المقاومة فيطمئن قلبه ، ولكن الأسى يستبد به بعد ذلك ، حين يقرأ عن خديعة بريطانيا للسلطان العثمانى وظفرها بمنشوره عن عصيان عرابى ، وتتوالى الأنباء مسرعة عجلة عن خيانات بعض باشوات مصر ، وأخيراً تنتهى موقعة التل الكبير بانتصار سهل لم تكن تحلم به بريطانيا ، انتصار الخيانة على الشجاعة وانتصار الظلم على الحق ، وأكبر الظن أنه فى الوقت نفسه انتصار للحضارة الغربية على المدنية الشرقية . كان موقفه عسيراً هناك ، فما الذى يستطيعه قاسم ؟

ولم يطل تفكيره ، فقد اقتلعته الأحداث نفسها ، ووجهته إلى الطريق . كان جمال الدين ومحمد عبده قد تواعدا على أن يلتقيا فى باريس لمواصلة جهودهما من أجل تكتل المسلمين ، ومن أجل محاربة الاستعمار فى مصر . وهناك بدأ المجاهدان فى تأليف جمعية العروة

الوثقى السياسية ، فانضم إليها قاسم أمين ، ورأى فيها متنفساً لأشجانه وآماله . ولكن الاستعمار البريطانى استطاع أن يحارب الجمعية فى باريس ، وأن يغلق أمام جريدتها كل منفذ يصل بينها وبين القراء ، فتوقفت عن الصدور ، ورحل جمال الدين ، ورحل محمد عبده ليواصلا الجهاد الذى لا يملانه فى مكان آخر . وبقى قاسم فى فرنسا ، ولم يكن بينه وبين امتحانه النهائى سوى شهور ، انقطع فيها لدراسته . وكانت النتيجة النهائية نصراً له ولكل مصرى ، كان أبرز المتفوقين ، فحصل على ميدالية ذهبية ، وطلب إليه أستاذه « لرنود » أن يعمل معه بضعة شهور يكتسب فيها خبرات عملية . وفى صيف عام ١٨٨٥ آن لقاسم أمين أن يعود إلى وطنه ، فرحل إلى مصر والذكريات تتزاحم فى خاطره عن الحضارة الغربية ، وعن مصر الثائرة يوم تركها ليركب البحر إلى عالم جديد عليه .

عاد قاسم ليعمل فى سلك القضاء ، وكان حزب الإصلاح قد تفرق ، رحل زعيمه جمال الدين ، ورحل أستاذه الشيخ محمد عبده ، واختفى زميله عبدالله النديم وخفت صوت مصر ، ولم يعد هناك بد من أن يبدأ كل مثقف من طريق ، حتى تلتقى الطرق فى ميدان تتجمع فيه كل دروب الإصلاح . انتقل قاسم بعد بضع سنوات من قسم قضايا الحكومة إلى رئاسة نيابة بنى سويف ، فكان أول عمل قام به أن أطلق سراح كثيرين من المتهمين الذين سجنتهم الإدارة عدواناً . فحرية الأشخاص صورة مصغرة لحرية البلاد ، ولمبدأ الحرية الذى اعتنقه من قبل ، وهو عدو للاستبداد الممثل فى كيان الاستعمار فليكن عاشقاً للحرية منفذاً لها بقدرما يستطيع وما يطيق . بقى قاسم فى بنى سويف سنتين ، انتقل بعدهما فى نفس المنصب إلى طنطا ، وهناك ذاعت بعض مواهبه حتى وصلت إلى عبدالله النديم ، الرجل الوحيد من العرابيين المحكوم عليه بالإعدام وكان مختفياً بمديرية الغربية منذ بداية الاحتلال المشئوم ، فقدم نفسه لقاسم حتى يتصرف فى الأمر بما تقتضيه حكمته . لا بد أن يثير النديم فى مشاعر قاسم الزمالة فى الوطنية وفى الفكر ، ولكن ماذا يستطيع قاسم أن يصنع ؟ إنه يطبق القانون ، والنديم محكوم عليه بالإعدام ، هل يتنكر لمبادئه فيقيده ويأخذ منه الاعتراف ولو عن طريق القسوة ؟ لا ، لم يفعل ذلك قاسم ، بل قام له من كرسيه وأحسن معاملته وأمر بأن ينظف مكانه فى السجن ويضاء أيضاً ، وأن يمكن من شرب القهوة والدخان كما يشاء ، وأمده بالمال من عنده . ثم سافر إلى القاهرة ليلتمس له العفو اكتفاء بما ذاقه مدة السنوات التسع التى اختفاها ، وكانت الصحف قد بدأت حملة كبيرة من أجل الإفراج عنه . ولم يرجع قاسم إلى طنطا إلا بعد أن صدر قرار مجلس الوزراء بالإفراج عنه وإبعاده إلى الشام ومنحه مائة وخمسين جنيهاً ليستعين بها فى منفاه . وكأنما كانت الأقدار تهيئ قاسما ليقوم بهذا العمل الوطنى فيعين النديم على الخلاص لأنه لم يلبث أن عين هو وسعد زغلول مستشارين بمحكمة الاستئناف ، وهكذا بلغ قاسم أمين فى الحادية والثلاثين ما لم يبلغه إلا الأقلون من رجال القضاء فى الخمسين .

لم يكن قاسم يتقيد فى أحكامه بحرفية القانون إذا لم يصادف النص مكان الاقتناع منه ، وهو فى هذا مثل كثير من المفكرين والقضاة الذين أحدثوا بأحكامهم جديداً فى العدالة وفى التشريع ، وكانت محاولة فهم دوافع المتهم ، أهم عنده من تطبيق حرفية القانون ، وتلك بذور المصلح الاجتماعى ، نجدها منذ ذلك الوقت فى كثير من أحكام قاسم ، تصوروعياً بجوهر القانون ، وحرصاً على إنصاف الضعيف من القوى ، وكأنما كان يتمثل له بلده يستبد به الاحتلال دون سند من قانون .

وكأنما كانت لحياة قاسم القضائية آثار طبعت حياته العائلية ، فهو عادل فى معاملته لزوجته ، يقدر لها اهتمامها بشئونه ، كريم فى عشرته ، يخصص لها جزءاً من وقته بعد ظهر كل يوم يتحدثان فيه ، قبل أن

يخصص لكتبه وقتها المقدس من السابعة إلى العاشرة . ولم يكن فى حياته العائلية يهتم كثيراً بالتقاليد الجامدة التى كانت سائدة فى ذلك الوقت ، فهو لا يأكل وحده ، وإنما يأكل مع زوجته ، وهو لا يمنعها من الخروج ، وإنما يدعها تخرج لزيارة صديقاتها ، فرأيه فى تقاليد عصره ، رأى مصلح ثائر ، لا يجارى الناس على عاداتهم إن لم يقتنع بها .

ولم تقتصر جهود هذا المصلح على دائرة عمله الوظيفى ، فهو مؤسس « الجمعية الخيرية الإسلامية » التى لا تزال موجودة إلى الآن « بدرب الجماميز » . وهو أحد مؤسسى الجامعة المصرية ، التى كانت رسالتها تهدف — عند هؤلاء المؤسسين — إلى تحطيم عنق الزجاجة ، والخروج إلى آفاق أرحب نستطيع أن نخدم فيها الوطن عن طريق العلم الذى لا يصلنا إلا صداه من أوربا ، وبذلك تسرى دماء نقية فى عروقنا ، تدفعنا إلى النشاط والتحرك . على أن أكبر عمل إصلاحى قام به ، هو دعوته إلى تحرير المرأة ، الذى أثار ضده عاصفة من المعارضة والتهجم ، فهو خطوة جريئة جداً فى ذلك الوقت الذى كانت الدعوة فيه إلى تعليم المرأة مجرد بصيص ضئيل من النور يتسرب متلصصاً . ومن هنا كانت هذه الضجة الشديدة فقد اتهمه العامة بالمروق من الدين ، وحرم قصر عابدين عليه ، واشتعلت المعركة فى الشام والعراق على صفحات الجرائد ، وألفت الكتب فى الرد على دعوته ، ولكن ذلك كله لم يثبط همته ، بل وجد فيه نوعاً من الإغراء بالاستمرار والثبات ، وهو واثق أن البذرة الصالحة لا بد أن تنبت وتزهر ، مهما لقيت فى طريقها من عقبات موقوتة ، وهكذا ظل يحمل المشعل دون ملل ، حتى ودع الحياة التى أحبها ، ورحل إلى موكب الخالدين فى الثالث والعشرين من أبريل عام ١٩٠٨ .

ترك لنا قاسم أمين خمسة مؤلفات تتصل جميعها بفكرة الإصلاح الاجتماعى ، وأولها كتاب « المصريون » الذى ألفه بالفرنسية ونشره عام ١٨٩٤ . والدارس لهذا الكتاب يدرك أنه صورة من صور الكفاح بين الشرق والغرب ، فهو يرد فيه على آراء الدوق الفرنسى داركور التى نشرها فى كتابه « مصر والمصريون » . والدوق الفرنسى كان متشبعاً بجملة من الآراء التى قيدها بعض المفكرين الغربيين فى القرن التاسع عشر ، فالنقد المنصف لا يثير أحداً ، ولكن الذى أثار قاسما هو المطاعن القاسية غير المنصفة التى رمى بها مصر وهاجم الإسلام .

ويبدأ قاسم أمين رده وهو مؤمن بمبدأ التقدم ، وأن هذا التقدم قد يتعثر فى بعض الأخطاء ، ولكنه فى النهاية لا بد أن يتغلب . فاذا كانت مصر فى أول الطريق فقد مرت فرنسا بنفس الطريق من قبل ، لكن الجهل والفقر لم يقفا حجر عثرة فى سبيل تطورها . ثم يتحدث قاسم بعد ذلك عن ذوبان الطبقات فى المجتمع المصرى كما لاحظ ذلك الدوق الفرنسى ، والعجيب أن الدوق داركور حين لاحظ تميع الطبقـــات أواخر القرن الماضى هاجم ذلك الوضع لأن المجتمع لا يستقيم عنده إلا بوجود طبقات اجتماعية متميزة ، وهنا يجد قاسم أمامه الفرصه ليعرض للإسلام عرضاً يوضح بعض جوانب القوة التى يجهلها الدوق . فالإسلام قد ساوى بين الناس ، ولم يجعل لمسلم فضلا عن مسلم إلا بالتقوى بل هو قد سبق كل النظم الثورية بألف عام حين أنكر امتيازات المولد والثروة ، وليس فى الإسلام طبقة يصل عن طريقها الفرد إلى ربه . والإسلام من بين الأديان جميعاً هو الذى يقرر أن عمل المرء وجهده يرفعانه حتى يصل إلى أعلى المراتب مثلما وصل كثير من العلماء المسلمين دون نظر إلى نسبهم .

وينتقل إلى موضوع المرأة فى الإسلام ، فيرى الإسلام قد سبق كل الشرائع فى تقرير حقوق المرأة قبل أن تعرفها أوربا باثنى عشر قرناً ، فليس للزوج عليها إلا سلطان معنوى ومعاملة بالمعروف ، وإذا كانت

المرأة الشرقية محجبة فان ذلك لا يرجع إلى الإسلام بل يرجع إلى عصور خلت من الجهالة . على أن الحجاب فى مصر ليس معناه السجن فى المنازل ، فالمرأة تخرج للزيارات وللأسواق ، ولكن الحقيقة التى لا بد من التسليم بها هى الجهل ، غير أن الأمل معقود على الرغبة الموجودة عند الرجال فى تثقيفهن من أجل جيل جديد .

ولا يرى قاسم أمين فى تعدد الزوجات ولا فى الطلاق هذه البشاعة التى يراها كتاب الغرب ، لأن من الثابت إحصائياً أن المرأة الغربية هى التى تعيش لغرائزها وقد أدرك المشرع الإسلامى هذه الأخطار ، فحلل تعدد الزوجات وجعل الأصل واحدة واشترط العدالة بين الزوجات ، كما أباح الطلاق لكنه أوجب الوساطة بين الزوجين ، وجعل الطلاق أبغض الحلال إلى الله .

ثم يتناول فى الفصول الأخيرة موقف الإسلام من العلم ، فيورد أحاديث الرسول فى الحث على طلب العلم ، ويهاجم رأى داركور الذى ادعى فيه أن الإسلام قد وأد العلوم ، ثم يلتهب حماسة حين يرى أوربا التى تأخذ علينا الضعف والفقر والجهل هى التى تقيم فى سبيل تطورنا العقبات والسدود ، وفى كل مظهر من مظاهر حياتنا نجد الأيدى الأجنبية تعبث بمصالحنا فى سبيل منفعتها .

منذ ذلك الوقت بدأ قاسم أمين يبحث فى عيوب المجتمع ومشاكله وبدأ يضع أصابعه على كثير من النقاط التى أثارها الدوق ليعيد البحث فيها بحثاً هادئاً . فكتب سلسلة مقالاته التى نشرها متتابعة فى جريدة المؤيد عام ١٨٩٨ ، ثم جمعت فيما بعد تحت عنوان « أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ » . وقد تضمنت هذه السلسلة تسعة عشر مقالا تدور حول ثلاثة عناصر هى النواحى الاقتصادية وأسس التربية السليمة ومستوى موظفى الدولة . فنحن نتكاسل فى كثير من الأحيان عن جلب الرزق وتركنا مواردنا دون استثمار فكانت النتيجة أننا أصبحنا مجال صراع الأمم الغربية من أجل السيطرة علينا ، ويتحدث عن مغامرات الأجانب فى بلادنا من أجل الربح الوفير كأنما كان ينظر بعين المستقبل إلى ما ينبغى أن نقوم به من أجل زحزحة الأجانب عن مواردنا الاقتصادية . ثم يعود فيتعمق المشاكل الاجتماعية فيجد أكثرها ترتد إلى سبب جوهرى ، هو إهمال التربية الروحية التى تعود الطفل أن يفهم الفضيلة والرذيلة وأن يمارس الفضيلة ويتجنب الرذيلة ، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن تكون الأسرة التى نشأ فيها الطفل قد فهمت دورها حق الفهم . وبعد أن يتحدث قاسم عن أهمية التربية وأسسها ينظر نظرة نقدية تلحظ العيوب التربوية فى مجتمعنا ، وتلك هى الخطوة الأولى للإصلاح دائماً . وأول ما تقع عليه عينه هو حب النفس ، وحب النفس فطرة فى الإنسان ، ولكنه إذا تضخم بحيث يصل إلى درجة الأنانية والسعى من أجل الصالح الخاص بغض النظر عن الإضرار بالغير كان رذيلة مدمرة . وإذا كانت الأم فى العائلة هى المربية الأولى، فهل من الحكمة أن تكون هى نفسها مجردة عن كل حلى التربية ؟

ولعل أبرز صور الأنانية إنما تتجلى فى الموظف الكثير الحديث عن أمجاده والموظف المتكاسل والموظف الذى لا ينسى لحظة مصلحته الخاصة وينسى دهراً مصالح الناس والموظف الذى يظن وظيفته مركزاً للتعالى والاستبداد . فكرة التربية إذن تسرى فى كل مقالاته ، ولكن الفكرة التى طغت على كل فكرة سواها هى تربية النشء ، وحين فكر فى تربية النشء فكر فى الأسرة وفى المرأة .

وهكذا خصص قاسم أمين كتابه « المرأة الجديدة » لير د حجج الذين يعارضون تحريرها ، فمن ادعاءاتهم ما يزعمون من أن المرأة مخلوق ناقص العقل والتفكير ، وأنها أضعف عزيمة من الرجل وأقل قدرة منه على مقاومة الشهوات ، وهو يرد على ذلك بأن التشريح الفسيولوجى والتجربة فى البلاد التى منحت المرأة حريتها قد أثبتت أن المرأة مساوية للرجل فى الملكات مثلما حدث

فى ولاية « يومنج الأمريكية » . ومن الغريب أنه فى الوقت الذى لا يعفيها القانون من العقوبة إذا ما ارتكبتها ولا تعفيها الشرائع السماوية من المسئولية ، ولا يعفيها الرأى العام من الخطأ ، لا يود أحد أن يعترف بأنها مختارة . فهم حين يلتفتون إلى الشرق يضعون نصب أعينهم امرأة مثالية ، وحين يلتفتون إلى الغرب يتمثلون امرأة مبتذلة ، والمعتقدات الموروثة تقيدهم قيداً لا فكاك منه فى كل خطوة يخطونها ، ومن هنا نهج فى كتابه منهجاً علمياً ، فهو يرفض أن يقبل أى دعوى من الادعاءات الشائعة دون أن يقوم عليها الدليل العلمى القاطع . وينبه إلى وجوب الأخذ بالأسلوب العلمى إذا أردنا أن نصل إلى نتيجة . فنتصور نظريتنا مطبقة فى قرية ثم فى مدينة ثم فى إقليم ، ونتمثل النساء فى جميع أعمارهن وأحوالهن وطبقاتهن ، ونتصورهن فى المدرسة وفى البيت وفى الغيط وفى الدكان وفى المصانع . ثم نستعرض حال النساء فى غير بلادنا ونقف على حال المرأة فى الأزمان الخالية والتقلبات التى طرأت عليها .

ويرى قاسم أمين أن الحكم على استعداد المرأة لا يكون عادلا ومنصفاً ومستوفياً لشروط البحث العلمى المحايد إلا إذا منحنا المرأة الفرصة التى منحها الرجل لتثقيف عقله ودعم ملكاته خلال الأجيال الطويلة ، ويرفض أن يصدق ما يذاع عن حرارة الجو وأثره فى إثارة الشهوات ، مما يتذرع به الداعون إلى حبس المرأة فى البلاد الشرقية ، ما لم يقم على صحة هذا الزعم دليل علمى ، ويستشهد برأى عالم إيطالى يقول إن العفة تكتسب بمنح الحرية للمرأة ، وأن اختلاف الأجواء لا أثر له فى ذلك . ويعتمد على علم النفس وعلم وظائف الأعضاء فى التدليل على أن قوة البنية وسلامة الأعصاب هما أهم ما يعين الإنسان على ضبط نفسه . ويقيم الدليل من حياتنا السياسية على أن الحرية هى منبع الخير للإنسان وأصل ترقيته وكماله الأدبى ، ثم يبين أن النمو الأدبى لا يختلف فى سيره عن النمو المادى ، فالطفل يحبو قبل أن يمشى ثم يتعلم المشى بالتدريج مستنداً إلى الحائط ، فاذا استقل بالمشى لم يحسنه إلا بعد أن يتعرض للوقوع على الأرض مرات ، فلا ينبغى أن نكون كالأب الأحمق الذى يخاف على ولده إذا مشى أن يسقط فيمنعه من المسير ، حتى إذا كبر عاش مقعداً مشلولا . ويعتمد على إحصاء عام ١٨٩٧ ، الذى يدل على أن جملة النساء اللائى يشتغلن بحرفة أو صنعة يمثل اثنتين فى كل مائة من مجموع النساء ، ولا يدخل فيه الفلاحات اللائى يعملن فى الزراعة ولا النساء اللائى لا عائل لهن ممن يعشن عالة على أقاربهن ، ويتساءل : ألا ينبغى لهذا العدد من النسوة أن يزودن بما يعينهن فى معركة الحياة ؟ ثم يعود فيعتمد على إحصائية وفيات الأطفال فى القاهرة ويقارنه بوفيات مدينة ضخمة كلندن ، فيرى أن عدد الوفيات فى أطفال القاهرة يزيد على ضعف عدد الموتى فى أطفال لندن ويرجع ذلك دون شك إلى جهل الأم بالثقافة الصحية .

أما الكتاب الوحيد الذى نشر بعد وفاته فهو « كلمات » ويشتمل على كثير من الحكم الموجزة ، والحكمة فلسفة الخاصة ، كما أن المثل فلسفة العامة ، وقد عرف العرب المثل والحكمة فهى خلاصة تجربة مرت بانسان عميق الإحساس ، فنحن عندما نقرأ قول قاسم « النفس الضعيفة تنحنى للقوى وتنكمش أمام الظالم وتهاب كل صاحب سلطة » أو ننظر إلى قوله « لا تكمل أخلاق المرء إلا إذا استوى عنده مدح الناس وذمهم إياه » أو نسمعه يقول « يوجد أناس متى رأيتهم أو سمعتهم تشعر بنقص فى خلقهم ، كأنهم صنعوا بغاية السرعة ، فلم ينالوا حظهم من الإتقان المعهود » ، حين نقرأ هذه الأقوال ، نحس حقيقة أنها خلاصة تجارب عاناها فى الحياة تركزت فى تلك الكلمات ، وندرك أن تياراً واحداً يجمع كتابه « كلمات » على تفرقه هو التيار الإصلاحى ، وندرك كذلك أن الكتاب على صغر حجمه قد وعى من التجارب أكبر من حجمه بكثير ،

ونتأكد أن كل كتبه ترتد إلى نبع واحد يتدفق فى كل الاتجاهات ، الدراسات والنقد والمقالات والحكم ، وهو الإصلاح الاجتماعى .

* * *

تحرير المرأة

ولكن كتاباً واحداً من مؤلفات قاسم هو الذى أثار ضجة وصراعاً وهو فى الوقت نفسه الذى كتب لقاسم الخلود ، ذلك هو «تحرير المرأة» كما قلنا . وعندما اختمرت فكرة هذا الكتاب فى ذهن قاسم ، عرض على صديقه أحمد شفيق أن يشاطره العمل فى تأليف الكتاب ، فاعتذر بأن الأفكار لم تتهيأ بعد لقبول مثل هذه الدعوة ، وزاد اعتذار الصديق من حماسة قاسم أمين ، فلو انتظر المصلحون دائماً رضاء الرأى العام لما تغير العالم عما كان عليه فى العصور البدائية . إنه يستطيع أن يمضى وحده ليهيئ الأفكار للإصلاح الاجتماعى ، إصلاح نصف المجتمع ، وغاية ما يريد هو أن يلفت المجتمع إلى ما وصل إليه ، لا أن يحقق كل ما يرغب فيه «لأن تحويل النفوس إلى وجهة الكمال فى شئونها مما لا يسهل تحقيقه ، وإنما يظهر أثر العاملين فيه ببطء شديد فى أثناء حركته الخفية» . وهو يعلم أن الناس لا تتقبل آراءه ببساطة ، ولكنه لا يرجع عما يعتقد أنه الحق .

يرى قاسم المسلمين منتشرين فى أطراف الأرض ، فهل هم أنفسهم متحدون فى عاداتهم وتقاليدهم وأساليب حياتهم ؟ أليست الحقيقة أن لكل أمة فى كل فترة من الزمن آداباً خاصة بها ترتبط بمدى تقدمها العقلى والاجتماعى ؟ إن بقية الحقيقة أن هناك تلازماً بين انحطاط المرأة وانحطاط الأمة . إن الغربى الذى يحب أن ينسب كل شىء إلى دينه ما دام راقياً ، يعتقد أن المرأة الغربية قد ترقت لأن دينها قد ساعدها على نيل حريتها ، والواقع أن الإسلام قد سبق كل الشرائع فى تقرير مساواة المرأة للرجل ، فأعلن حريتها واعتبر لها كفاءة شرعية يوم كانت فى حضيض الانحطاط عند كل الأمم . لماذا إذن هوت المرأة إلى هذه المنزلة السيئة ؟ لا دخل للإسلام فى ذلك ، ولكنها عادات ورثناها عن الأمم التى انتشر فيها الإسلام ، فلم تبدل تقاليدها بعد أن أسلمت ، ثم كانت الحكومات الإسلامية سبباً فى استمرار تلك التقاليد القاسية ، فالحاكم يستبد بالمحكوم والرجل يستبد بالمرأة .

بعد هذا التمهيد الذى عرض فيه لحالة المرأة السيئة وحاول أن يتتبع الجذور التاريخية لتلك المنزلة وينبه إلى براءة الإسلام منها ، بدأ يرد على سؤال كان يتردد على صفحات الجرائد فى ذلك الوقت عن «الرجل والمرأة وهل يتساويان» مع وضوح قوته الجسدية والعقلية ؟ فيرى قاسم أن الرجل إذا فاق المرأة فذلك يرجع إلى أنه قد مارس الأعمال العضلية والعقلية فقويت بنيته ونما عقله بدوام الممارسة فى الوقت الذي حرمت فيه المرأة من استعمال القوتين تقريباً ، فلا شىء إذن يمنع المرأة المصرية من الاشتغال بالعلوم والآداب والفنون الجميلة والتجارة والصناعة مثل المرأة الغربية إلا جهلها وإهمال تربيتها .

ولكن البيئة مختلفة هنا والعقول غير مهيأة ، فيتواضع فى مطالبه حتى تتهيأ تلك العقول بفعل التطور لقبول المزيد . ولم يدع قاسم إلى خروج المرأة لميدان العمل إلا فى حالات الضرورة كأن يتوفى زوجها أو يكون فقيراً محتاجاً إلى المساعدة ، أو لم تتزوج إطلاقاً فلا بد لها إذن من التعلم لتتمكن من العمل فى وظيفة شريفة بدلا من الانزلاق إلى هاوية الرذيلة . ولكن الدعوة إلى العمل برغم الشروط التى وضعها ، كانت غريبة على المجتمع ولم يكن من الممكن أن تجتذب أنصاراً عديدين فى وقت سريع لسيطرة المحافظة الشديدة .

ولا سبيل إلى سعادة الأمة إذا لم يسعد الزوج فى بيته ولم تسعد الزوجة مع زوجها ، ولم يسعد الأبناء فى

بيئة صالحة . والطفل لا يعيش إلا بين النساء ، فى الفترة التى يكون فيها عقله ونفسه أشبه بصحيفة بيضاء قابلة لكل ما ينقش فيها سواء أكان خيراً أم شراً . ومن جهل الأم أن تترك طفلها مشرداً فى الطرقات يتمرغ فى الأتربة تمرغ صغار الحيوانات ، وأن تملأ قلبه فزعاً بالجن والشياطين وألا تعرف من وسائل الحفاظ عليه سوى تعليق التعاويذ والطوف حول القبور والتمسح بالأضرحة . إننا نجد فى هدى نبينا ما ينبغى أن نقتدى به حين قال فى شأن عائشة : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » . وعائشة امرأة لم تؤيد بوحى وإنما سمعت فوعت وعلمت فتعلمت ، ولذا ينبغى أن نبدأ بتربية المرأة تربية تنقذنا من جميع العيوب التى يقذفنا بها الأجنبى كل يوم ، وترتد كلها إلى إهمالنا تربية المرأة .

ولكن ما بال أكثر الرجال يعارضون تعليمها وتثقيفها فى الوقت الذى يشكون فيه مر الشكوى من جهالتها ؟ لقد رسخ فى أذهانهم أن تعليمها وعفتها لا يجتمعان ، والواقع أن البطالة التى ألفتها النساء عندنا وصارت طابع حياتهن هى أم الرذائل ، والتعليم يرفع من قدر المرأة ويرد إليها إحساسها بشخصيتها وكيانها ويسمح لها أن تفكر فى أعمالها ، والمرأة المتعلمة تخشى عواقب الأمور ويكون لها من كرامتها ما يصونها عن الدنس .

إلى هنا كان قاسم يعرض لموضوع تربية المرأة وتعليمها عرضاً منطقياً ، يسوق فيه الأدلة العقلية ، ولكنه حين ينتقل للموضوع الخاص بحجاب المرأة سنرى أثر قراءاته الدينية ، لأن القرآن الكريم والحديث الشريف عرضا له من قبل ، وهو يمس جوهر الحياة الاجتماعية الإسلامية . ثم إن قاسما قد أيد الحجاب من قبل حين رد على الدوق الفرنسى ، فلا ينبغى حين يدعو إلى السفور اليوم أن يكون متناقضاً مع نفسه ، ولكن هل دعا قاسم حقيقة إلى السفور ؟ الواقع أنه لم يدع إلا إلى الحجاب الشرعى ، فالغربيون قد غالوا فى السفور إلى درجة قد يصعب معها أن تتصون المرأة ، ونحن غالينا فى الحجاب حتى صيرنا المرأة متاعاً من المقتنيات ، وحرمناها نعمة الحياة الحقة ، وبين هذين النقيضين درجة تسمو عليهما ، هى درجة الحجاب الذى حدده الإسلام .

وينقل قاسم عن « لاروس » أن نساء اليونان كن يستعملن الخمار إذا خرجن ويخفين وجههن بطرف منه كما هو الآن عند الشرقيين ، معنى هذا أن الحجاب لم يستحدثه المسلمون ، وأن المغالاة فيه كانت معروفة قديماً عند كثير من الأمم ، فاذا كنا قد غالينا نحن أيضاً فيه ، فما ذلك إلا اتباع لعادة موروثة ألبسناها لباس الدين كسائر البدع التى تمكنت من الناس باسم الدين . وقد اتفق الأئمة على أن الوجه والكفين مما يباح للمرأة أن تظهر بها دون حجاب أمام الأجنبى ، والمذهب الشافعى يبرر ذلك بأن المعاملة والشهادة تستدعى سفور الوجه واليدين ، والمالكية والحنابلة يتفقون على هذا أيضاً ، وينقل نصوصاً كثيرة للفقهاء تؤكد هذا الرأى حتى إذا خلص منه راح يسوق من الحجج المستخلصة من واقع حياتنا ما يثبت به ضرورة الاقتصار على الحجاب الشرعى ، فمن الغريب أن تحضر المرأة مغلفة من رأسها إلى قدميها ثم تبيع أملاكها أو توكل فى زواجها ، وكثيراً ما أظهرت الوقائع القضائية مآسى التزوير فى مثل هذه الأحوال ، فتتزوج المرأة بغير علمها وتجرد من أملاكها على جهل منها . ثم كيف يمكن لامرأة محجبة أن تزاول عملا تعيش منه إن كانت فقيرة ؟ وكيف يمكن لتاجرة أو زارعة أو عاملة أن تتحرك فى قيدها ؟ لا شك أن هذا لم يسمح به الشرع ولا يسمح به العقل .

أخوف الفتنة إذن هذا الحجاب ؟ هل اعتبرت عزيمة الرجل أضعف من عزيمة المرأة ، حتى أبيح

للرجال أن يكشفوا وجوههم لأعين النساء ، ومنع النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال ؟ إن على من يخاف الفتنة من الرجال أن يغض بصره كما أن على من تخافها من النساء أن تغض بصرها ، والقرآن صريح فى ذلك حين يقول : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها » . على أن أسباب الفتنة ليست فيما ظهر من أعضائها وما خفى ، بل فيما يصدر عنها من أفاعيل أثناء سيرها ، والنقاب من أشد أعوان المرأة على ذلك إذ هو يخفى شخصيتها .

ولكن الحجاب من مفاهيمه أيضاً قصر المرأة فى بيتها والحظر عليها أن تخالط الرجال . ونساء النبى كن مأمورات بالاستقرار فى بيوتهن ، فماذا عن نساء المسلمين ؟ إن قوله تعالى فى نساء النبى « لستن كأحد من النساء » يشير إلى عدم الرغبة فى المساواة . والحجاب على ما ألفناه مانع عظيم يحول بين المرأة وارتقائها وبذلك يحول بالتالى بين الأمة وتقدمها . وربما يقال إن فى الإمكان أن تكمل المرأة دراستها وتربيتها فى بيتها ، ولكن الحقيقة أن الحجاب يحجب المرأة عن العالم ، فلا ترى إلا سفاسف الأحداث فى بيتها ، ويقتل الرغبة فى التفكير وفى الحركة نفسها . ولو أخذنا رجلا بلغ الأربعين من عمره وحجبناه عن العالم ، وألزمناه أن يعيش بين أربعة جدران وسط النساء والأطفال والخدم ، لشعر بانحطاط تدريجى فى قواه العقلية والجسمية . لذلك تصاب أغلب نسائنا بالتشحم أو فقر الدم ، ومتى ولدت مرة تداعت بنيتها وذبل جسمها وظهرت عجوزاً وهى فى ريعان شبابها ، على أن المرأة التى تخالط الرجال تكون أبعد عن الأفكار السيئة من المرأة المحجبة ، لأنها اعتادت الاختلاط بحيث أصبح أمراً طبيعياً . وبديهى أن المرأة التى تحافظ على شرفها وهى غير محجوبة ، لها من الفضل أضعاف ما لزميلتها لأن عفتها اختيارية ، أما تلك فعفتها قهرية ، ولا أدرى كيف نفتخر بعفة نسائنا ونحن نعتقد أنهن مصونات بقوة الحراس وارتفاع الجدران . أيقبل من سجين دعواه أنه رجل طاهر لأنه لم يرتكب جريمة وهو فى السجن ؟

وبعد أن أحس قاسم أنه فند حجج رجال الدين بالرجوع إلى مفاهيم الإسلام فى أصولها ، وأوضح أثر الأسلوب المتبع فى فساد الطبائع وتزييف الحقائق ، وفند الآراء الشائعة ، لم يبق أمامه إلا أن يستثير النخوة ويستحث المشاعر . الغريب حقاً ألا يوجد رجل فينا يثق بامرأته مهما اختبرها وعاشت معه ، ومن العار ألا نثق فى أمهاتنا وبناتنا ونتصور أنهن لا يعرفن صيانة أنفسهن ، ثم ماذا يفيد الرجل أن يمتلك جسم المرأة إذا غاب عنه قلبها ؟ ثم بعد ذلك ألا يبدد الرجل منا أمواله دون مبرر حين يبنى بيتين ويؤثث بيتين ويأتى بفريقين من الخدم ، فريق للرجال وفريق للنساء فى قسم الحريم ، ثم لا بد له أن يأتى بعربتين لأننا لا نقبل أن يركب الرجل مع زوجته أو حتى مع والدته عربة واحدة ؟ إن الجرائم ترتكب من حولنا ، فالقتل والنهب والقذف وغيرها تزعج الساكن وتقلق المطمئن ومع ذلك نتحمل مصائبها ونجتهد فى تطهير المجتمع منها بالطرق المشروعة عن طريق القانون أو التربية . فلم استثنينا خطيئة المرأة ، وصنعنا بها ما لم نصنع بالرجل ؟

ومن العجيب أن الحجاب نفسه قد رق حتى صار فتنة لا ستراً ، ونحن فى مرحلة تطور سوف تستمر حتى تبلغ مداها ، فالحكمة أن نتداركها بتنظيم التيار لا بالوقوف أمامه ، وذلك عن طريقين ، أولهما أن يكون حد السفور هو الحجاب الشرعى ، وثانيهما التحصين عن طريق التربية السليمة . ولكن هل قال قاسم كل ما يريد ؟ لا فقد كان يعلم أن الطفرة مهلكة ، وحتى التطور والانتقال لا بد أن تحدث فيه أخطاء ،

ولكنه يؤمن بأن إمكانية المرأة تستطيع أن تخدم المجتمع ، وأنه لا يستطيع أن يسبق عصره بمدى طويل ، فلا يستطيع أن يقول إلا ما يمكن أن يستسيغه جانب على الأقل من أهل عصره ، وعلى مدى الأيام سينتقل التطور من مرحلة إلى مرحلة .

بعد أن ناقش قاسم القضية وأحس أنه انتهى فيها إلى رأى قاطع ، انتقل إلى موضوع من أخطر الموضوعات وأكثرها أهمية ، وهو موضوع المرأة والأمة . وهو يبدوءه متسائلا عن سر ضعف الأمة الإسلامية ذلك السؤال الذى طالما ردده من قبل أساتذته ، ثم يجيب عنه بأن ضعفنا العلمى هو السبب ، فقد سبقنا عصر البخار والكهرباء ولم نلحق به ، فأتانا الغربى غازياً ، لأنه ملك القوة العلمية . ومن المحال أن نأمل فى نهضة علمية شاملة ما لم تكن الأمهات قادرات على تهيئة جيل جديد للنجاح . فانحطاط المرأة إذن هو أكبر عقبة تقف أمامنا ولا بد أن نزيل تلك العقبة . وقد أثبتت المرأة فى أوربا أن انحطاطها كان عارضاً لا طبيعياً ، فقد وصلت إلى درجة لم يكن يحلم بها أكبر المصلحين فى يوم من الأيام . فهى رأس مال عظيم نحن مقصرون فى الانتفاع به ، مثلنا مثـــل الغنى الذى يدفن ماله ، ولو استثمره لعاد بالنفع عليه وعلى بلده . وإذا كانت المرأة الغربية قد دخلت الوظائف العامة ، فالمرأة الشرقية تستطيع أن تخدم بلدها متى ترقت ، على الأقل عن طريق الجمعيات الخيرية ، وما أكثر حاجتنا إلى تلك الجمعيات وما أشد قدرة المرأة على العمل فيها لما جبلت عليه من رقة الإحساس والصبر الطويل الذى لا يتحمله أعظم الرجال جلداً .

هل نضرب الأمثلة من التاريخ ؟ إن طائفة عظيمة من الأحاديث النبوية قد رويت عن عائشة وأم سلمة وغيرهما من أمهات المؤمنين ونساء الصحابة . وهل ننسى أن عائشة قد تدخلت فى مسألة الخلافة وكانت رئيسة للحزب المعارض فى يوم ما ؟ وهل ننسى أيضاً أن عدداً كبيراً من النساء اشتهرن بخدمة العلم ؟ إن الناظر إلى هذه الفروع جميعاً يجدها ترتد إلى أصل واحد هو تربية المرأة . حرمناها التربية السليمة وحجبناها عن الدنيا وعن نور المعرفة ، فعشنا معها فى الظلام ، فلكى تشرق الشمس ثانية علينا ينبغى أن نفتح النوافذ ، لنرى شروق صباح جديد .

وبعد أن انتهى قاسم من عرض فكرته وتحليلها ، رأى أن أحكامنا الشرعية نفسها بحاجة إلى الوقوف عندها . فينظر إلى آراء الفقهاء فى الزواج وتعدد الزوجات والطلاق ، ويعود ينظر مرة ثانية إلى نصوص التشريع فتتملكه الحيرة . فالقرآن يقول : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » . والفقهاء يعرفون الزواج بأنه « عقد يملك به الرجل بضع المرأة » فأى اختلاف بين مفهوم القرآن ومفهوم الفقهاء حول الزواج ؟ إنه فى عرف الفقهاء صلة مادية محضة ، وفى عرف القرآن صلة قوامها المحبة . ولما وصلت منزلة الزواج إلى هذه الدرجة عند الفقهاء سرى أثرها بين المسلمين ، وكان من نتائج ذلك أن يتم عقد الزواج قبل أن يرى كل من الزوجين صاحبه ، فى حين أن أحاديث الرسول تبيح أن ينظر الرجل إلى خطيبته ، لأن العلاقة الزوجية تقوم على توافق بين نفوس الزوجين وائتلاف بين الطباع والأخلاق ، فأين نحن من هذا ؟ إن الجيل الجديد لا يرضى الزواج بزوجة لم يرها وأم جاهلة لأبنائه ، فينبغى أن نزن مطلبه بميزان العقل والشرع ، وهو فى الحقيقة ليس إلا رجوعاً إلى الأصول النقية للإسلام . وإذا رجعنا إلى تلك الأصول ، وجدنا آية تعدد الزوجات تعلق وجوب الاكتفاء بزوجة واحدة على مجرد الخوف من عدم العدل ، ثم تصرح آية أخرى بأن العدل غير مستطاع ، ولا يعذر رجل يتزوج أكثر من امرأة إلا فى حالة الضرورة ، كأن تصاب امرأته بمرض مزمن أو تكون

عاقراً . أما تعدد الزوجات فى غير هذه الحالة ، فليس إلا نتيجة لاعتبار المرأة متاعاً كسائر المتاع الذى يملكه الرجل . على أن قيام العداوات بين أعضاء العائلة الواحدة نتيجة لتعدد الزوجات كفيل بأن يصرف الرجل العاقل عن هذا التعدد وأن يكبت شرهه فى طلب اللذائذ . وكذلك الأمر بالنسبة للطلاق ، فالمطلع على إحصائية الطلاق فى مدينة القاهرة خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر يدرك أن كل أربع زوجات يطلق منهن ثلاث وتبقى واحدة فقط ، وهى نسبة مزعجة توضح مدى الانهيار الذى أصاب الأسرة عندنا . وإطلاق الحرية للزوج فى الطلاق مهما كان أرعن أو عابثاً ، أمر خطير بالنسبة لكيان الأسرة ، وإذا رجعنا إلى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ، وجدنا أبغض الحلال إلى الله الطلاق ، ووجدنا أن مضمون القرآن يحتمل أن يكون الطلاق أمام القاضى الذى يحاول التوفيق وإصلاح ما بين الزوجين قبل أن يمزق وثيقة الرباط المقدس . وأخيراً ، أليست الزوجة المثقفة الواعية قادرة على رأب الصدع فى أكثر الأحيان ؟ أليست قادرة على احترام زوجها لها فلا يفكر فى تعدد الزوجات ولا يفكر فى الطلاق ؟ يرى صديقة ورفيقة له فى رحلة الحياة الشاقة فتهون متاعب الرحلة وهو يستند إلى ذراعها ، ولا يعود يفكر إلا فى سعادة بيته وأبنائه . وهكذا حاول قاسم أن يجتهد فى الشريعة الإسلامية ، ورأى نصوص القرآن وأحاديث الرسول ، تحت النور الذى أضاءه فقهاء مجتهدون مثل الشيخ محمد عبده .

والواقع أننا إذا نظرنا إلى آراء قاسم أمين اليوم رأينا أنه لم يكن مسرفاً ، فهو قد دعا إلى الحجاب الشرعى ، ودعا إلى تربية المرأة وتحميلها مسئولية جيل جديد يطمح فى نهضة قومية شاملة . ونقف اليوم لننظر إلى مطلع القرن العشرين ، فنسمع قاسما ينادى بآرائه ، وتتعالى الصرخات ضده ، ونعود ننظر إلى الحاضر ، فنرى المرأة قد تبوأت مكاناً رفيعاً ، فلا تعلو وجوهنا الدهشة ، ذلك أن قاسما حين فتح لها باب الحياة الطليقة ، أدرك كثير من المفكرين أن الأيام لا بد أن تسير بها مسرعة إلى نهاية الطريق .

والسؤال الذى يبقى بعد ذلك يتعلق بمنهجه فى عرض آرائه . فنحن عندما نقارن بين أسلوبه وأسلوب بعض معاصريه ندرك أن قاسما كان من الكتاب الذين تحللوا من قيود الصنعة وكتبوا بأسلوب حر جديد أشبه شىء بالتيار الصافى الذى ذهب بكل الشوائب التى تجمعت على مر القرون . وإلى جانب ذلك نلحظ روح المنطق الجدلى ، فهو يذكر لنا القضية ويعرضها عرض المحامى الذى يريد أن يكسب القضية ، ومن أجل هذا نجده فى كثير من الأحيان يقسم الفكرة إلى جزئيات يناقش كل واحدة منها من كل وجوهها ، حتى إذا انتهى منها تجمعت الصورة الكلية فى الإطار العام .

والنماذج التالية من كتاب « تحرير المرأة » توضح خصائصه السابقة :

نصوص مختارة

١ - « عاشت المرأة فى انحطاط شديد أياً كان عنوانها فى العائلة ، زوجة أو أماً أو بنتاً ، ليس لها شأن ولا اعتبار ، ولا رأى ، خاضعة للرجل لأنه رجل ولأنها امرأة . فنى شخصها فى شخص الرجل ، ولم يبق لها من الكون ما يسعها إلا ما استتر من زوايا المنازل ، واختصت بالجهل والتحجب بأستار الظلمات ، واستعملها الرجل متاعاً للذة ، يلهو بها متى أراد ، ويقذف بها فى الطرق متى شاء ، له الحرية ولها الرق ، له العلم ولها الجهل ، له العقل ولها البله ، له الضياء والفضاء ، ولها الظلمة والسجن ، له الأمر والنهى ولها الطاعة والصبر ، له كل شىء فى الوجود وهى بعض ذلك الكل الذى استولى عليه . من احتقار المرأة أن يطلق الرجل زوجته بلا سبب . من احتقار المرأة أن يقعد الرجل على مائدة الطعام وحده ثم تجتمع النساء من أم وأخت وزوجة

ويأكلن ما فضل منه . من احتقار المرأة أن يحال بينها وبين الحياة العامة والعمل فى أى شىء يتعلق بها ، فليس لها رأى فى الأعمال ولا فكر فى المشارب ولا ذوق فى الفنون ولا قدم فى المنافع العامة ولا مقام فى الاعتقادات الدينية ، وليس لها فضيلة وطنية ولا شعور ملى » .

٢ - « أليس من جهل الأم بقوانين الصحة أن تهمل ولدها من النظافة فيعلوه الوسخ وتتركه متشرداً فى الطرق والأزقة يتمرغ فى الأتربة كما تتمرغ صغار الحيوانات ؟ أليس من جهلها أن تدعه كسلان يفر من العمل ويضيع وقته الذى هو رأسماله مضطجعاً أو نائماً أو لاهياً مع أن سن الطفولة لا يعرف الكسل ، وهو سن النشاط والعمل والحركة ؟ أليس من أثر جهلها أننا جميعاً مصابون بشلل فى أعصابنا حتى صرنا لا نتأثر من شىء مهما بلغ فى الحسن والقبح ؟ فاذا رأينا عملا جميلا مدحناه من طرف اللسان ، وإذا شاهدنا فعلا قبيحاً استهجناه بهز الرءوس وظاهر من القول بدون أن نشعر بانبعاث باطنى يقهرنا على الاندفاع إلى الأول ولا على الابتعاد عن الثانى ؟ أليس من جهلها أن تسلك فى تأديب ولدها طريق الإخافة بالجن والعفاريت وأن تأخذ من وسائل صيانته ووقايته من المضرات تعليق التعاويذ والطواف به حول القبور وفى زوايا الأضرحة ، وغير ذلك مما لا يبالى به إلا الجاهلون بأصول الدين وفضائل الأعمال ، وله من الأثر السيئ فى أنفس الناشئين بل وفى أرواح الرجال ما يجر إلى كل شر ويبعد عن كل خير؟ » .

٣ - « وأما خوف الفتنة الذى نراه يطوف فى كل سطر مما يكتب فى هذه المسألة تقريباً فهو أمر يتعلق بقلوب الخائفين من الرجال وليس على النساء تقديره ولا هن مطالبات بمعرفته . وعلى من يخاف الفتنة من الرجال أن يغض بصره كما أنه على من يخافها من النساء أن تغض بصرها . والأوامر الواردة فى الآية الكريمة موجهة إلى كل من الفريقين بغض البصر على السواء . وفى هذا دلالة واضحة على أن المرأة ليست بأولى من الرجل بتغطية وجهها .

« عجباً ، لم لم يؤمر الرجال بالتبرقع وستر وجوههم عن النساء إذا خافوا الفتنة عليهن ؟ هل اعتبرت عزيمة الرجل أضعف من عزيمة المرأة ، واعتبر الرجل أضعف من المرأة عن ضبط نفسه والحكم على هواه ، واعتبرت المرأة أقوى منه فى كل ذلك حتى أبيح للرجال أن يكشفوا وجوههم لأعين النساء مهما كان لهم من الحسن والجمال ، ومنع النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال منعاً مطلقاً خوف أن يفلت زمام هوى النفس من سلطة عقل الرجل فيسقط فى الفتنة بأية امرأة تعرضت له مهما بلغت من القبح وبشاعة الخلق ؟ » .

٤ - « وإن سمح لى القارئ أن أبدى هنا كل ما أظنه صواباً ، أقول لا يمكننى أن أفهم أن الطلاق يقع بكلمة لمجرد التلفظ بها مهما كانت صريحة . نعم إن الأعمال الشرعية لا تستغنى عن الألفاظ إذ لو حللنا أى عقد لوجدناه مركباً من ظهور إرادة أو مطابقة إرادتين حصل الاستدلال عليها أو عليهما من الألفاظ التى صدرت شفاهياً أو بالكتابة ، ولذلك فليس الغرض الاستغناء عن الألفاظ وإنما مرادنا أن اللفظ لا يجب الالتفات إليه فى الأعمال الشرعية إلا من جهة كونه دليلا على النية . فينتج من ذلك أنه يجب أن يفهم أن الطلاق إنما هو عمل يقصد به رفع قيد الزواج وهذا يفرض حتما وجود نية حقيقية عند الزوج وإرادة واضحة فى أنه إنما يريد الانفصال من زوجته ، لا أن يفهم كما فهمه الفقهاء وصرحوا به فى كتبهم أن الطلاق هو التلفظ بحروف (ط ل ا ق) » .